المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
كلية الشريعة بالرياض



****

ابن قدامة وآثاره الأصولية

القسم الأول

دراسة علمية أعدها
الدكتور
عبد العزيز بن عبد الرحمن السعيد

الطبعة الرابعة
١٤٠٨هـ / ١٩٨٧ م

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

بقلم معالي مدير جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي

ان الحمد لله ، نحمده ونستعينه ، ونستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فهو المهتدي ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله . صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وأتباعه وسلم .

أما بعد .

فمنذ سنوات كنت أطالع كثيراً في كتب أصول الفقه ، وبخاصة عند الحنابلة حينما كنت أدرس أصول مذهب الإمام أحمد بن حنبل — رحمه الله — وكان من أهم الكتب المعتمدة فيه كتاب « روضة الناظر وجنة المناظر » للإمام الموفق ابن قدامة رحمه الله .

وكان كثير من أساتذة هذه المادة قد سادت لديهم فكرة : خلاصتها أن الحنابلة رحمهم الله ليست لهم أصول فقه مستقلة ، وإنما هم تبع للشافعية في أكثر كتبهم ، وأن كتاب روضة الناظر لابن قدامة منقول أكثره من كتاب المستصفى للغزالي ، مع تهمة عدم إجادة النقل ، إذ يصادف الدارس لهذا الكتاب بعض العبارات والنصوص التي يصعب فهمها إلا بتصرف في العبارة ، أو مراجعة للمستصفى ، أو غيره من كتب الأصول وتقويمها على أساسه ، وإزاء هذه الفكرة يحار الدارس حينما يرى كتب الفروع الحنبلية الضخمة

التي تضارع كتب المذاهب الأخرى ، بل تزيد في كثير من الجوانب : وتتميز بآرائها ومناهجها المستقلة ، واختياراتها الواضحة ، مما يدل على أن أصحابها لهم منزع خاص ، وأصول بنوا عليها هذه الفروع . وقواعد استنبطوها منها ، وهذا لا يمنع من تشابه القواعد والأصول لدى علماء المسلمين ، وتشابه الاستنباط والاستنتاج ، لأن هناك أصولا أجمعوا عليها ، وهدف الجميع الوصول إلى الحق بعد بذل الجهد في الاستدلال والاستنباط .

والذين حاولوا أن يميزوا مذهب كل إمام من أئمة المسلمين عن الأئمة الآخرين تمييزا لا التقاء معه أخفقوا إخفاقاً واضحاً ، وأبعدوا النجعة . وأيسر طريق لكشف عور هؤلاء أن يرجع الباحث إلى كلام الإمام نفسه وأصوله فيجد التشابه والتقارب بين أئمة المسلمين .

وما حصل من اختلاف بينهم فمرده إلى اختلاف في وجهات النظر في اعتبار بعض الأصول والقواعد ، والحكم على النصوص ، وتطبيقها على الوقائع . وهذا أمر طبعي .

وقد تحدث كثير من العلماء — رحمهم الله — عن أسباب اختلاف الأئمة رحمهم الله ودواعيه وأنواعه ، وعذرهم في ذلك .

أقول : إن تلك الملابسات جعلتني أكثر البحث في كتب أصول الفقه لدى الحنابلة ودراستها والموازنة بينها وبين أصول الأئمة الآخرين . وكان من نتيجة ذلك : أن اتضح لي كثرة تأليف الحنابلة في أصول الفقه ، وأصالة كثير منها ، واستقلال النزعة فيها .

إلا أنها لم تخدم في العصر الحديث الخدمة التي أتيحت لكتب الأصول الأخرى . ولم يتوافر لها المحققون والناشرون ، ولعل لذلك أسباباً كثيرة من أهمها : أن دور العلم في العالم الإسلامي التي صاحبت نشأة المطابع وبدء

خروج الكتاب العربي مطبوعاً بالطباعة الحديثة كان القائمون عليها ، والمدرسون فيها لايعتنون بالمذهب الحنبلي، ولم تبدأ كتب الحنابلة ترى النور ، وتخرج للباحثين إلا يوم أن أصبح للجزيرة العربية ودولها شأن في المجال السياسي والتعليمي ، حيث كان المذهب السائد فيها هو مذهب الحنابلة .

وقد تحدثت في مقدمة كتابي : أصول مذهب الإمام أحمد بن حنبل(١) عن كتب أصول الحنابلة المطبوعة والمخطوطة . وبينت رأيي فيها ، وذكرت أماكن وجودها ، ووجهت دعوة ملحة للباحثين ، وبخاصـــة الذين كانت ثقافتهم الأولى حنبلية أن يتجهوا لدراسة هذه الكتب : تحقيقاً ودراسة ونشراً .

وقد استجاب لهذه الدعوة — والحمد لله — عدد كبير من إخواني وزملائي الباحثين وتسابقوا إلى هذا الميدان . فأصبحت أكثر كتب أصول الحنابلة الهامة محل دراسة وتحقيق . وقد لا يمر وقت طويل إلا وكثير منها قد حقق ونشر — بإذن الله — .

وكتاب : روضة الناظر وجنة المناظر لابن قدامة الذي هو جزء من هذا الكتاب الذي أقدم له من أهم تلك الكتب التي تداولها الدارسون وقلبوا صفحاتها وعانوا ما فيها من صعوبة ، وملاحظات ، وتمنوا أن يهيئ الله له من يتولى دراسته ، وتحقيقه ، ونشره . وقد تحققت الأمنية — والحمد لله — فقام لهذا الأمر رجل عرف قدر هذا الكتاب وقدر مؤلفه — رحمه الله — حيث تتلمذ عليه ، واستفاد من كتبه وآثاره سواء أكانت في الأصول ، أم في الفروع .

إضافة إلى إلمامه بمواطن شكوى الدارسين من هذا الكتاب وهذا ما يجعله يضاعف الجهد في معالجتها .

---

(١) صدرت الطبعة الأولى منه عام ١٣٩٤ هـ — ١٩٧٤ م في ٧٤١ صفحة ، ونفدت ، وستعاد طباعته ثانية قريبا — ان شاء الله .

إنه الأخ الكريم فضيلة الدكتور عبد العزيز بن عبد الرحمن السعيد ، عميد كلية الشريعة بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، الذي كافح ونافح واعتمد على الله ثم على جهده وقدراته وثقته بنفسه حتى وصل إلى ما وصل إليه في العلم والعمل .

وقد أحسن بي الظن فطلب مني أن أقدم لدراسته هذه — ابن قدامة وآثاره الأصولية — وما درى — وفقه الله — أن الإدارة ومشكلاتها تحول دون ذلك ، إذ التقدمة في نظري تتطلب دراسة للكتاب المقدم له ، واستيعاباً لموضوعاته ، وإبداء الرأي فيما يظهر فيه من ملاحظات والإشادة بما وصل إليه مؤلفه من نتائج ، سواء اتفق المقدم مع المؤلف في ذلك ، أم اختلفا في وجهات النظر .

إذ أن كثيراً من القارئين يحكمون على الكتاب من مقدمته ، وإحقاقاً للحق أرجو ألا يحكم أي قاريء على هذا الكتاب من كتابتي عنه ، بل يؤجل الحكم عليه حتى ينتهي من قراءته ، ويوازن بين حالته التي هو عليها الآن وبين حالته السابقة وبالمقابلة تتميز الأشياء .

وإن صح حكم القاريء على الكتاب من مقدمته في الكتب الثقافية العامة فلا يصح هذا في الكتب العلمية المنهجية ، لأن هذه لا تتضح إلا عند معالجة القضايا العلمية ومناقشتها .

ومن هنا فلن أسمح لنفسي هنا بالحديث عن جهد المؤلف في كتابه ، والنتائج التي توصل إليها ، وما أتفق معه أو أختلف في وجهات النظر .

وقصارى القول : أن المؤلف تحدث عن تاريخ الأصول ، ومناهج الأصوليين في البحث وأفاض في ترجمة الإمام الموفق ، وتحدث عن مكانته العلمية ، ومنهجه في التأليف في الأصول ، وصلة كتابه الروضة بالمستصفى ، وعناية الموفق رحمه الله بالمذهب الحنبلي مما جعل ذلك كله يستغرق القسم الأول من هذا الكتاب .

أما القسم الثاني فهو كتاب الروضة نفسه ، حيث صحح كثيراً من الأخطاء الموجودة في النسخة المطبوعة ، وعلق على آراء ومسائل فيها ، وخرج الآيات والأحاديث والشعر مما ورد في الكتاب مع التعريف والترجمة للأعلام الذين ذكرت أسماؤهم فيها ، كل ذلك مع تنسيق وتنظيم للكتاب ، ووضع فهارس له مما سييسر الاستفادة منه في طبعته هذه ، ويذلل كثيراً من الصعوبات التي تواجه الباحثين فيه سابقاً .

ولعل الفرصة تتاح لأخينا الدكتور عبد العزيز بن عبد الرحمن السعيد مرة أخرى ليزيد في دراسته لهذا الكتاب المفيد ، ويخدمه خدمة موضوعية تجعل عباراته الصعبة ، ومباحثه المتداخلة ، وقضاياه المنطقية المعقدة ، سهلة ، ومنتظمة ، وواضحة . مع رد الفروع إلى أصولها ، وتطبيق مسائل الاجتهاد في الفروع على القضايا الأصولية ، فيكون بذلك تابع مسيرته ، وأخرج الدراسات الأصولية الحاضرة من المجال النظري إلى المجال التطبيقي ، وبذلك تستثمر دراسة الأصول ، ويتذوق الناس حلاوته وتبدأ أولى مراحل الاجتهاد الذي ضعفت آلته مما دعا بعض العلماء إلى القول بسد بابه .

وإني — من خلال ممارستي لهذا الفن — لأعلم صعوبة هذا المطلب ، ولكن فضيلة مؤلف الكتاب بما أوتي من جلد وصبر ، مع استعانة بالله وحده واعتماد عليه ، ومتابعة لطريقة سلف الأمة الصالح يستطيع ذلك بإذن الله .

وأسأل الله تبارك وتعالى أن ينفع به ، وأن يجزى مؤلفه خير الجزاء .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ......

د . عبد الله بن عبد المحسن التركي